مقدمة

بعد أن انتهيت من إعداد الطبعة الأولى من كتابى « شوارع لها تاريخ » فى مارس ١٩٩٦م ، كان لزاماً علىّ أن أصدر كتاباً عن تاريخ إنشاء مدينة القاهرة ، ومراحل تطورها ، إلى أن أصبحت على ما هى عليه فى أول القرن الواحد والعشرين . . خصوصاً وأن كثيرين من المؤرخين لم يقتربوا كثيراً من هذا النوع ، الذى يؤرخ لنشأة العاصمة المصرية تاريخياً ومعمارياً . . تخطيطياً وبشرياً بالتفصيل الذى يروى غلة القارئ ، بل والباحث أيضاً . ولم يقترب أحد ـ كثيراً ـ بالبحث عن أصول أحياء القاهرة ونشأتها ، وكيف ظهرت وكيف تطورت هذه الأحياء . .

وبقيت حوالى ٦ سنوات أنقب وأبحث وأجمع كلمة من هنا وسطراً من هناك وأدقق فى كل ما أجد ، لكى أقدم كتاباً دقيقاً ومدققاً ليصبح مرجعاً شاملاً عن نشأة القاهرة ، وعن تاريخ أحيائها القديمة و الحديثة ، لمن شاء أن يعرف أصل هذه المدينة التى سلبت ألباب المثقفين والمستشرقين الأجانب ، أكثر مما سلبت ألباب المثقفين العرب . .

وقرأت معظم الكتب القديمة والوسيطة والحديثة ، التى تحدثت عن القاهرة . ووجدت بحراً زاخراً ، ولكن بأسلوب تقديم لايقبل عليه قارئ القرن الواحد والعشرين . ثم كان علىّ أن أرفض أى معلومة ، أو أى رواية غير موثوق بها . لقد أردت كتاباً بلغة عصرية يقدم المعلومة والمعرفة . . الحقيقة والطرفة بعيداً عن الخرافات ، لكل من يسكن بالمحروسة أو يمر بها أو يحبها .

إن من حق الذين يسكنون المدينة ، أى مدينة ، أن نروى لهم حكاية هذه المدينة . . من الذى أنشأها . ومن الذى قسّم أحياءها . وكيف كانت بدايتها . . شوارعها ومعالمها ، بل وأشهر أحداثها ، ومن الذى عاش فيها . فما بالنا بمدينة مثل القاهرة ، عاصمة عمرها الحقيقى يتجاوز ١٤ قرناً ؛ إذ لايجوز قصر الحديث على ما يحمل اسم القاهرة وحدها ، لأن العواصم الإسلامية لمصر التحمت بالقاهرة ، وأصبحت إما جزءاً منها ، أو أصبحت فى قلبها . من هنا فإن القاهرة هى كل العواصم الإسلامية لمصر. . من الفسطاط فى الجنوب ، إلى العسكر . . إلى القطائع ، إلى العاصمة الفاطمية ، وهى رابع عواصم مصر الإسلامية . . أى القاهرة . .

●● هى إذاً تلك المدينة « الطولية » التى تمتد من حلوان فى أقصى الجنوب إلى شبرا الخيمة فى أقصى شمالها . عاصمة يمتد طولها أكثر من ٤٠ كيلو متراً . وإن كان عمقها ـ عند القلب ـ لايتجاوز ٣ كيلو مترات : من النهر إلى الجبل . وهى مدينة لم تكن على النهر !! بل كان النهر يبتعد عنها باستمرار . . أو تبتعد هى عن النهر . ولكنها الآن أصبحت جزءاً من النهر ، بل التصق فيها وبها النهر ، وأصبحت لاتذكر القاهرة ، إلا وذكر النهر . والنهر هو هذا النيل ، أو البحر ، بحر النيل أطول وأشهر وأجمل أنهار الدنيا .

●● وعلينا ـ ونحن نؤرخ للقاهرة كعاصمة سياسية لمصر ـ ألا نفرق بينها وبين العواصم الثلاث الأولى ؛ ليس فقط لأن الكل التحم وأصبح مدينة واحدة متصلة ، بل لأن الموقع نفسه يفرض ذلك . .

فالعاصمة الأولى لمصر الإسلامية نشأت حول فسطاط القائد الشهير عمرو بن العاص فاتح مصر . ولنا أن نتخيل حجم هذه العاصمة الوليدة ، ليس بأن نعود إلى مساحتها عند إنشائها ، ولكن بمساحتها التى نتخيلها لها الآن مجرد حى فى جنوب العاصمة الحالية ، يحيط بأول مسجد بنى فى مصر ، وهو مسجد عمرو بن العاص . والفسطاط هذه كانت بدايتها يوم الأول من المحرم عام ٢١هـ الموافق ٩ من ديسمبر ٦٤١م . وهنا نتذكر اليمام الذى باض وأفرخ فى فسطاط عمرو ؛ أى خيمة القائد عمرو، ومن هنا جاء اسم العاصمة .

أما العاصمة الثانية فكانت عباسية اسمها « العسكر » ، وتعود إلى بداية الدولة العباسية ، عندما أمر القائد صالح بن على « عسكره » أن يبنوا لأنفسهم . فقامت مدينة العسكر عام ١٣٣هـ ، وقامت شمال العاصمة الأولى الفسطاط ، بكيلومتر واحد . ولم تتعد مساحة « العسكر » من غرب الفسطاط إلى حى السيدة زينب الآن . أى كانت بين حى المدابغ الحالى عند سور العيون وحى زين العابدين .

وكانت العاصمة الإسلامية الثالثة لمصر هى القطائع . . أنشأها أحمد بن طولون ، الذى كان أول من استقل بمصر عن الخلافة العباسية ، أى جعل مصر دولة مستقلة . ولم يكن للخلافة من سلطان إلا الدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة . وأراد ابن طولون أن تكون له عاصمة تفخر بها مصر المستقلة ، فأقامها شمال شرق « العسكر » عام ٢٥٦هـ. ولم تزد مساحة القطائع على كيلو مترين مربعين : من الجبل إلى الجامع . والجبل هنا هو جبل يشكر ، والجامع هو جامع ابن طولون ، أما عرضها فكان من ميدان القلعة « الآن » إلى مشهد زين العابدين .

وأقام ابن طولون جامعه ودار الحكم ، فكان بينهما ١٨٠٠ متر تقريباً . ولم يبق من «العسكر» شىء سوى الأطلال . ولم يبق من القطائع إلا الجامع فريد الطراز ، الذى أنشأه على غرار جامع مدينة سر من رأى « سامراء » مدينة ابن طولون نفسه فى العراق ، وكانت القطائع محصورة بين الجبل والخليج المصرى . .

●● وبعد مرور ١٠٠ عام بالتمام والكمال على إنشاء أحمد بن طولون لعاصمته القطائع ، بنى جوهر الصقلى عاصمة الفاطميين ـ القاهرة ـ وكانت البداية عندما وضع أساسها يوم ٥ يوليو ٩٦٩م الموافق ١٧ شعبان ٣٥٨هـ . وبناها أيضاً بعيداً عن النيل ، وعلى مساحة ٣٤٠ فداناً .

هذه العواصم الأربع التحمت فى عاصمة واحدة ، هى التى نعرفها الآن باسم القاهرة . ويعرفها العامة باسم مصر . فإذا سئل الصعيدى أو البحراوى : إلى أين أنت ذاهب ؟ كانت إجابته : رايح مصر . . فالقاهرة هى مصر ، ومصر هى القاهرة . ومن

هنا فإن العامة يصفون الفسطاط أول عواصم مصر الإسلامية بأنها « مصر العتيقة » أى مصر القديمة ، التى أصبحت واحدة من أشهر أحياء العاصمة ، وليس أدل على أن المصرى يعرف القاهرة بأنها مصر ، من أن محطة القطارات فيها اسمها الرسمى والشعبى هو « محطة مصر » . ويقصدون بها أحيانا محطة باب الحديد ، بل انتقل هذا الاسم : محطة مصر إلى محطة السكك الحديدية فى الإسكندرية . فنجد العامة والمسئولين يطلقون عليها أيضا اسم محطة مصر ، لأنها المحطة التى يتوجه منها أهل الإسكندرية إلى القاهرة . . أى إلى مصر . .

هذه العاصمة تطورت بسرعة مذهلة . وعاشت أياماً بيضاء عديدة شهدت عز مصر ومجدها . كما عاشت أياماً سوداء كانت هى أيام انكسارها . ولكنها من أكثر عواصم العالم تطوراً واتساعاً . فقد كانت مجرد بيوت من الطوب الأخضر ، وبعض الأحجار الجيرية وسعف النخيل أيام الفسطاط . ثم كانت مساحة القطائع لا تزيد على ٨٠٠ فدان من المقطم إلى الخليج . . ثم جاء جوهر الصقلى قائد جند المعز ليبنى القاهرة على مساحة ٣٤٠ فدانا لا أكثر ؛ لأنه أرادها مقراً وسكنا للخليفة الفاطمى ، وليست سكناً للشعب . وظلت كذلك إلى نهاية حكم المستنصر ، عندما سمح للناس بالسكن فيها ، وربما لهذا السبب زاد وزيره بدر الجمالى مساحتها بما يعادل ٦٠ فدانا أخرى لتصبح المساحة الكلية للقاهرة الفاطمية هى ٤٠٠ فدان .

●● ولنا أن نتخيل كل ذلك ، ونحن نرى القاهرة تتسع وتتشعب . .

فإلى الجنوب نشأت جنوب الفسطاط أحياء البساتين و المعادى و المعصرة وطرة إلى أن نصل إلى حلوان . وإلى الغرب نشأت أحياء قاهرة الخديو إسماعيل مثل حى الإسماعيلية « التحرير » وأحياء وسط العاصمة لتصل القاهرة الى النيل بعد أن كانت تقف عند الضفة الشرقية للخليج المصرى ، الذى ظل يحدها من الغرب لقرون عديدة . ووجدنا المدينة تتسع شمالاً فتعبر باب الحديد إلى شبرا وإلى روض الفرج ، إلى أن تصل حدود شبرا الخيمة التى هى من زمام محافظة القليوبية . ولا يعرف هذه الحدود إلا موظف العوايد أو الشرطة .

وأخذت القاهرة تتسع ، فنشأت أحياء الظاهر والعباسية ومنشية البكرى والقبة وحدائق القبة وكوبرى القبة إلى حلمية الزيتون وعين شمس والمطرية . ومع منتصف القرن العشرين نجد مدينة نصر التى تزحف إلى طريق السويس الصحراوى ، وفى بداية القرن العشرين نجد مصر الجديدة تزحف إلى طريق السويس الصحراوى ، ثم نجد مصر الجديدة تزحف فى أول القرن ٢١ إلى طريق الإسماعيلية الصحراوى . وهكذا.

●● وحتى نعرف بالأرقام مساحة القاهرة ، نقول إن القاهرة الفاطمية التى كانت مساحتها ٣٤٠ فدانا ثم ٤٠٠ فدان أيام المستنصر ، نجد أنها أصبحت ١٩٤٨ فدانا أيام الحملة الفرنسية على مصر ، ونجدها تقفز إلى ٢٩٠٠ فدان فى أواخر أيام الخديو إسماعيل . أما الآن فإن مساحتها تتجاوز ٧٠ ألف فدان ، بعد أن غزت الصحراء وانتهت جغرافياً صحراء الريدانية أى العباسية ، وصحراء الحصوة و الجبل الأصفر .

ولم تقف عند ذلك ؛ فقد تجاوزت العاصمة الشاطئ الشرقى للنهر، الذى كانت تقف عنده جغرافياً ، لتعبر إلى الشاطئ الغربى ، لتضم عملياً مدينة الجيزة من المنيب جنوباً إلى أحياء المساحة و الدقى والعجوزة وإمبابة شمالاً. وتمتد غرباً أكثر لنجد حى المهندسين الذى حمل من البداية ومن النصف الثانى لخمسينيات القرن العشرين اسم مدينة الأوقاف ، التى امتدت إلى أحياء أخرى ، غربها معظمها عشوائى مثل أرض اللواء وبولاق الدكرور ، بعد أن نعبر خط السكة الحديد المتجه إلى الصعيد .

ومن هنا كان قرار إطلاق اسم « إقليم القاهرة الكبرى » على كل هذه المدن : القاهرة، الجيزة ، وشبرا الخيمة فى منتصف ستينيات القرن العشرين ، عندما تم إنشاء اللجنة العليا لتخطيط القاهرة الكبرى لتشرف على تخطيط حياة العاصمة : المكان والسكان فى هذه المدينة المتروبوليتان . وتخطط وسائل الانتقال بين أجزاء هذه العاصمة التى أصبحت مترامية الأطراف : من الصحراء إلى الصحراء ؛ أى من صحراء السويس شرقاً وصحراء طريق الإسماعيلية شمالاً ، إلى صحراء طريق الإسكندرية الصحراوى

غرباً ، بعد أن كانت محصورة بين الجبل و الخليج ؛ مما دفع الحكومة إلى إنشاء محاور مرورية جديدة للربط بين مناطق هذه المدينة مترامية الأطراف من الجبل إلى الجبل . ومن منف عاصمة مصر القديمة ، إلى عين شمس إحدى عواصم مصر الفرعونية أيضاً . . من الجنوب إلى الشمال الشرقى ، مثل محور المنيب و الطريق الدائرى . .

ووجدنا محور ٦ أكتوبر من مدينة نصر شرق القاهرة إلى الدقى غرباً ، ومحور ١٥ مايو من منطقة الإسعاف إلى أبو العلا إلى الزمالك إلى ميدان سفنكس ، ثم إلى محور مدينة ٦ أكتوبر غرباً عابراً ميت عقبة إلى الصحراء الغربية !! ثم محور كوبرى روض الفرج . . هذه المحاور كلها هدفها تسهيل نقل الحركة من شرق العاصمة إلى غربها عبر النهر . .

أصبحت القاهرة إذاً مدينة متعددة المدن !! فيها العواصم الأربع القديمة : الفسطاط ، العسكر ، القطائع ، والقاهرة الفاطمية . . بالإضافة إلى قاهرة إسماعيل . ثم إلى « مدينة » نصر و «مدينة » مصر الجديدة ، وامتداداتها إلى مدينة القاهرة الجديدة ومدينة السلام . . إلى مدينة الصحفيين . ومدينة الضباط ومدينة أساتذه الجامعة ، وأحياء الدقى و العجوزة . ومدينة إمبابة ، وكلها غرب النيل . وفى الجنوب نجد «مدينة » المعادى « ومدينة » حلوان .

وأصبحت العاصمة المصرية مدنًا وراء مدن . . وراء مدن ، حتى إنها تخطت الاسم الجغرافى المتعارف عليه جغرافياً باسم المدينة المتروبوليتان التى لم تكن تتعدى مدينتين أو مدينة وثلاث ضواحى مثل نيويورك التى تمتد من مانهاتن إلى بروكلين إلى ستاتين .

ولم تعد القاهرة مدينة يسكنها عدة آلاف ، بل مدينة يسكنها الملايين . . وكان عدد السكان فى أول إحصاء ـ وهو الذى أجرته سلطات الاحتلال الفرنسى عام ١٧٩٩ ـ هو ٢٦٠ ألف شخص . ثم أصبح مع تحديث المدينة أيام الخديو إسماعيل ٣٧٥ ألفاً . فإذا قفزنا حوالى ١٠٠ عام نجد أن عدد سكان القاهرة عام ١٩٦٦ هو ٤ ملايين و٢٢٠ ألف شخص . وبعد ١٠ سنوات يرتفع عدد سكان العاصمة إلى ٦ ملايين و١١٥

ألفاً. أى زاد عدد سكانها حوالى مليونى نسمة خلال ١٠ سنوات . والآن يصل عدد سكان العاصمة إلى ١٠ ملايين ، وإن كان عددهم يبلغ فى النهار ١٣ مليوناً يعملون فيها إذ يدخلها كل صباح نحو ٣ ملايين ، يخرجون منها كل مساء ؛ لأنهم يعملون بها ، ولاينامون أو يقيمون فيها .

●● واشتهرت القاهرة القديمة ـ وبالذات الفاطمية ـ بتعدد مسالكها . . هناك : الميدان ، و الشارع ، والحارة ، والدرب ، و الزقاق ، وكانت الحارة هى أساس تخطيط المدينة قديماً ، ومنها يتفرع الدرب والزقاق ، إلى أن نصل إلى العطفة ، ثم إلى الخوخة .

و الحارة كان يقيم فيها إما أبناء المهنة ، أو الحرفة الواحدة ، ومازال أبناء « الحتة » الواحدة يتحدثون عن أبناء الحارة الواحدة بقولهم : « عيب دا إحنا أولاد حارة واحدة» أى هناك ما يربطنا .

و إذا كانت الخوخة هى الأ صغر ، فإن الرحبة هى التى كانت توجد أمام بيوت الأمراء و الكبراء والأغنياء . . وجمعها رحاب . أما الزقاق فغالباً ما كان مغلقاً فى نهايته ، أى هو عبارة عن مدخل لعدة بيوت . وكان غالباً ما تتفرع من الزقاق عدة أزقة ، أما الدرب فكان هو الأكبر الذى يبدأ من الباب الكبير للحارة عندما كان لحارات القاهرة أبوابها .

والزقاق غير « الزنقة » فى تونس والمغرب . فإذا كان الزقاق عندنا صغيراً فى الطول والعرض ، إلا أن الزنقة عبارة عن شارع ، ولكن أقل اتساعاً وطولاً من الشارع الطبيعى .

ولكن انتهت الحارات . . وانتهت الدروب . . وانتهى عصر الأزقة . . كما انتهى ـ من زمن ـ لفظ الخط أو الخطة التى تساوى الآن الحى أو المنطقة ، لنجد فى عصرنا لفظ الأحياء وأقسام الشرطة ، ذلك أنه فى التقسيم الإدارى للمدن الآن نجد أن قسم الشرطة ينقسم إلى أحياء أو مناطق ، فنقول مدينة المهندسين ، أو حى المهندسين الذى هو من أحياء قسم العجوزة . . وهكذا .

****